هدى للمتقين

معجزة القرآن:

قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴿١﴾﴾ [الكهف: 1]، سبحانه هو الملك المعبود ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [البروج: 14 – 16].

قامت السموات والأرض بأمره، وجرت فيها الحياة بقضائه وقدره، أنشأنا في الأرض جميعاً، وجعل فينا نسباً وصهراً، واستعمرنا فيها أجيالاً وأمماً، وقسم بيننا الرزق والقوت. سبحانه له البقاء والثبوت وهو الحي الذي لا يموت، هو الخافض الرافع، وهو المعز المذل وهو على كل شيء قدير وإليه المصير.

وصف نفسه وعلمه سبحانه فقال: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: 59]. ونشهد أن سيدنا ومولانا وحبيبنا وشفيعنا محمد بن عبد الله عبده ورسوله وصفيه من خلقه وخليله

النعمة المهداة والرحمة المسداة، جاهد في سبيل الله حتى أتاه اليقين، أدَّى الأمانة وبلَّغ الرسالة ونصح الأمة وكشف الله به الغمة وتركنا على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها زائغ إلا هلك ولا يضلّ عنها إلاَّ ضال.

اللهم صلِّ وسلم وبارك على محمد وآله وصحبه، وبعد.

إن القرآن من الرحمن، ومعجزاته لا يحصيها زمان ولا أوان ولا مكان ولا تحيط بها الأذهان.

قطوفه قريبة سهلة المستفاد، ومناله بعيد منير مبهر، في كل ناحية منه رشاقة وإعجاز حيَّر الناس وليس له مثيل، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

المعجزة البلاغية:

القرآن كلام الله وليس بعد كلام الله كلام، ولا بعد كتاب الله تعالى ما يتلى، لا يقدر عليه إلا الله، أعجز الفصحاء وأعيا الأدباء، لا يستطيع أحد من الناس أن يأتي بكلمة منه أو ينقل منه سطراً أو يضادّ فيه فكراً.

تنظر إلى الآيات القرآنية تجد أن الله تبارك وتعالى يصنع المعجزات في كلمات رتبت ترتيباً كحبات اللؤلؤ وكما ترتب الزهرات لا يمكن تقديم كلمة منه أو تأخيرها.

كان العربي الفصيح يسمع الآيات فتأخذ بمجامع قلبه وعقله وهو أدرى الناس باللغة وإعجازها وبلاغتها.

سافر عمرو بن العاص من مكة إلى حدود الشام، قبل إسلامه، فالتقى بمسيلمة الكذاب، وكان يدَّعي أنه يوحى إليه، فقال مسيلمة: ما هي أخبار صاحبكم يا عمرو؟

قال عمرو، وكان ما زال على شركه وكفره: لقد كان آخر ما سمعت منه ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾ [العصر: 1-3].

سمع مسيلمة هذه السورة فقال: أنا أيضاً أنزل علي قرآن مثل هذا.

قال عمرو: وما هو!

قال مسيلمة: وبر يا وبر لك أذنان وصدر وفي الوجه حفران ذكر (والوبر حيوان يشبه الجمل).

قال عمرو: اسمع يا مسيلمة إنك تعلم أني أعلم أنك كاذب.

أبو الوليد أفصح أهل مكة جاؤوا به ليحاور الرسول ﷺ في القرآن فقالوا له: أنت أفصح واحد فينا ومعرفتك باللغة والبيان لا يضاهيها معرفة ونريدك أن تناقش محمداً فيما يقرأ علينا.

وتم اللقاء، فقال أبو الوليد أمام الجمع، تُقُصُّ علينا، أو أقص أنا عليك؟

قال الرسول ﷺ: أسمعك قرآناً وقل رأيك فيه بعد ذلك، وقل فيه ما تشاء.

قال أبو الوليد: أسمعك.

فقرأ رسول الله ﷺ ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ [طه: 1 – 7].

قال أبو الوليد: حسبك.

قال كفار قريش: إنما جئنا بك لِتَنْصِرَ لنا فتنتصر له؟ قال: لقد قلتم إنه كاهن وما هو كاهن فأنا أعرف سجع الكهنة والعرافين، وقلتم إنه شاعر وما هو بشاعر فأنا أعرف شعر الشعراء وهزجهم.

قال كفار قريش: لئن سمعتك قريش لتتبعنه بأجمعها وإنا نريد منك قولاً شافياً في محمد وإن أردت ملكاً ملكناك علينا وأنت سيد الناس إن غلبت محمداً على أمره.

قال أبو الوليد: أمهلوني.

دخل إلى داره، وأقفل عليه بابه وقعد يدرس الأمر ويتأمله، هل يتبع محمداً ويعادي قريشاً أم يطيع قريشاً ويصير سيد الناس؛ وأخذ يقلب الأمر في فكره.

وكان الرسول ﷺ بعد أن رأى تهلل وجه أبي الوليد لسماع القرآن قد أَمل أن يؤمن.

وخرج أبو الوليد إلى قريش بعد أن غلب الطمع على قلبه فقال: لقد عرفت ما فعل محمد.

قالوا: وما هو؟

قال: ما هو إلا سحر يؤثر، ما هو إلا قول البشر. حزن الرسول ﷺ حزناً شديداً لأن هذا الرجل آثر الحياة الدنيا على الآخرة، ونزل فيه الوحي.

قال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ [المدثر: 11 – 30].

انظر إلى أسلوب القرآن الكريم في وصف هذا الرجل وما فعل، لكأنه آلة تصوير تصور حركاته وسكناته أثناء تفكره بهذا الأمر ثم كيف اتخذ قراره وآثر الحياة الدنيا ثم ذكر عقابه وما سيناله من عذاب بنفس طريقة تصرفه وتفكره دون تغيير في لغة الخطاب أو الأسلوب لتتكمل الصورة تأثيرها على السامع.

لقد نقلنا القرآن الكريم إلى داخل الغرفة التي قعد فيها هذا الرجل وجعلنا نراقب تصرفاته لحظة بلحظة.

قصة أصحاب الجنة:

كان لرجل ثلاثة أولاد، وله بستان أنعم الله به عليه وكان يعطي نصيباً منه يوم جذاذه للفقراء والمساكين؛ فلما آلت الأموال بعد وفاته إلى أولاده؟ قال أكبرهم: إن أبانا كان يعطي الفقراء والمساكين من بستاننا كأنهم شركاء لنا فيه.

قال أوسطهم: إني أخاف أن تصيبكم جائحة من ربكم تذهب بمالكم لأنكم تريدون تغيير عادة أبيكم.

قال الأصغر: لن يدخلها علينا مسكين، وسنجذها في الغد؛ ونسوا أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون.

وقد قصَّ الله سبحانه وتعالى علينا خبرهم بصورة جعلتنا كأنما كنا معهم نسمع ونرى.

الإعجاز التصويري في القصص القرآني:

إن القصص القرآني يحملنا أولاً من الجو الذي نعيش فيه إلى جو القصص الذي يريد أن يعظنا به لكي ندرك أبعاد القصة بكاملها ومن كل جوانبها ويجعلنا نعيش مع أهلها ونراهم ونحس بما فعلوا وبما حل بهم.

وفي قصة أصحاب الجنة أي البستان نرى الأحداث ولا نسمع أخبارها فقط ففيها تصوير بالكلمات.

قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾﴾ [القلم: 17].

أي أن أولاد الرجل الذين ورثوا هذه الجنة قد اجتمعوا ليلاً، وتداولوا أمرهم بينهم وكان آخر مداولاتهم أنهم أقسموا على جذاذ وجني ثمر بستانهم في الصباح الباكر ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾ [القلم: 18] أي لم يقولوا: «إن شاء الله» وكان اتفاقهم على الاستئثار بثمر البستان فلا يعطون منه للفقراء والمساكين الذين اعتاد والد هؤلاء الثلاثة أن يهبهم بعض ثماره.

لقد صمموا على حرمان هؤلاء الذين قسم الله لهم رزقاً من هذا البستان وفي فعلهم هذا تطاول لا بد من محاسبتهم عليه فكان لا بد من نزول العقاب، وناموا وهم مزمعون على أن يكون استيقاظهم باكراً لإنجاز هذا الأمر ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [القلم: 19] أي نزل بها عقابهم ليلاً، أما هذا الطائف فلا نعلم ما هو، لعله نمل أو جراد أو صاعقة أحرقت أشجارها، أو داء أسرع في ثمارها فأفسدها جميعاً أو أي شيء آخر.

لم تذكر الآية هنا نوع الطائف الذي طاف بالبستان لأن العقاب قد يكون لهؤلاء بالجراد ولغيرهم ممن يفعل فعلهم بصاعقة تحرق الشجر ولآخرين بسيل يجرف الأشجار وقد يكون

بأي طريقة تناسب الزمان والمكان دون أن تؤذي بساتين غيرهم من الناس ولذلك جاءت الآية هكذا دون تحديد كيفية العقاب ولكنها أخبرتنا بالنتيجة ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝١٩ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ۝٢٠﴾ [القلم: 19 – 20].

لقد ظنوا أنه ليس بينهم وبين جذاذ بستانهم إلا هذا الليل، وهي فترة قصيرة لن يحصل فيها أشياء كثيرة، لكن هذا الليل القصير كان كافياً ليصير هذا البستان وكأنما قد سبق جذاذه واجتناء ثماره فلا ثمر فيه ولا فائدة منه مع طلوع الصباح الذي يريدون الغدوَّ فيه ﴿فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ۝٢١﴾ [القلم: 21]، ففي الصباح الباكر؛ وقبل أن يستيقظ الناس أخذ بعضهم يوقظ البعض الآخر ليكون خروجهم إلى بستانهم باكراً فلا يراهم أحد، خصوصاً المساكين الذين اعتادوا على نيل نصيبهم من هذا البستان طيلة حياة والد الشبان الثلاثة.

أما هدف الاستيقاظ الباكر فقد أوضحته الآية وذكرت لنا حوارهم وهو ﴿أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ۝٢٢﴾ [القلم: 22] أي هلم أسرعوا وغذوا الخطى نحو البستان إن كنتم تريدون اجتناء ثماره لأنفسكم أما مسيرهم إلى البستان فقد وصفته الآية التالية.

قال تعالى: ﴿فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ۝٢٣﴾ [القلم: 23] أي كانت خطواتهم سريعة يتهامسون بها فيما بينهم كي لا توقظ

أصواتهم أحداً من الناس، وهذا يعني أنهم مروا خلال قريتهم، وعبروا عدة منازل في طريقهم ولو كان مسيرهم في خلاء لما احتاجوا أن يتخافتوا وأن يكون كلامهم همساً ومسارَّة، وكان موضوع حديثهم ﴿أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٌ ٢٤﴾ [القلم: 24] فإن بقي فيها شيء مما لا خير فيه إلى الغد فلربما نتركه للمساكين، وهذا يعني أن أحدهم كان يعارض منع المساكين منعاً كاملاً فأرادوا استرضاءه بالكلمات فقط، فقالوا له: إن بقي شيء نتركه للمساكين وهم يضمرون أن لا يتركوا فيها شيئاً.

﴿وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ ٢٥﴾ [القلم: 25] فدخلوها مصممين على تنفيذ ما عزموا عليه ناسين أن الله الذي أورثهم هذه الجنة عن أبيهم قادر على حرمانهم منها بجائحة تصيبها، أو صاعقة تحرقها، أو ريح تقتلعها، أو نمل ينخر ثمارها أو عدو يباغتهم فيخرجهم منها ومن بلدهم كله وأنه سبحانه إنما حفظها لهم ببركة إحسان أبيهم إلى الفقراء والمساكين.

دخلوا إلى البستان فوضعوا السلال جانباً ثم التفتوا إلى الأشجار ليقرروا أين يبدأون فماذا رأوا؟

لقد رأوا بستاناً لا ثمر فيه أو أشجاره محطمة لا ثمار فيها، المهم أن ما رأوه كان عجباً ومفاجأة كبرى.

البساتين حولهم لم يصبها شيء وبستانهم وحده قد اجتاحته الجائحة التي ذهبت بثماره وأتلفته.

إذن فالأمر ليس من فعل عاصفة هبت ليلاً، فلو كانت عاصفة عامة لأتلفت كل البساتين، ولو كانت صواعق لضربت إحداها على الأقل شجرة في بستان آخر.

لو كان جراداً أو نملاً لمس أشجار غيرهم في طريقه ولو مسّاً فخرب بعضها، وبالتالي فالعقاب الذي حلَّ بهم واضح أنه نزل ببستانهم وحده فقط، ولذلك ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾﴾ [القلم: 26] ولعلنا دخلنا بستاناً آخر، فجروا وركضوا فيه من مكان لآخر ليتأكدوا أنهم لم يخطئوا فلما تأكد لهم أنه بستانهم بعينه قالوا ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [القلم: 27]، فقد حرمنا الله عز وجل من اجتناء ثمار بستاننا وأخذوا يتفكرون في سبب هذا العقاب الذي حل بهم ويتداولون أمرهم بينهم ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [القلم: 28] أي عدم ذكركم لله وعصيانكم له هو الذي تسبب بحرمانكم فأقروا بذنبهم ﴿قَالُواْ سُبْحَانَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [القلم: 29] وقد ظلمنا أنفسنا فيما انتويناه من الاستئثار وحدنا بنتاج هذا البستان وترك عادة أبينا؛ وأخذ كل واحد منهم يحاول التملص من هذا الذنب ويلقيه على الآخر ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [القلم: 30].

الصغير يقول للكبير: أنت الذي حرضتنا على هذه النية التي أذهبت ثمرنا، ويرد الكبير: لقد أخذك الحماس أكثر مني، والأوسط يقول: لقد نصحتكم فلم تستمعوا لنصحي.

ورد عليه الكبير: لو أنك أصررت على نصحك ولم ترض لربما كنا خضعنا وقبلنا برأيك لكنك لم تصدق أننا سنفعل ذلك حتى أخذك الطمع فجاريتنا ولو كنت مقتنعاً قناعة حقيقية ما كنت وافقتنا وخرجت معنا.

أدركوا جميعاً بعد طول حوار أنه كلهم مشتركون في الإثم ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾﴾ [القلم: 31].

لقد تجاوزنا حدنا وتناسينا أمر ربنا ووصية أبينا، وتملك الطمع قلوبنا، وأردنا أن نظلم الفقراء نصيبهم فكان جزاؤنا أن حرمنا، وهذا جزاء وفاق لنوايانا.

ندموا على ما فرطوا من أمر ربهم وأعلنوا توبتهم آملين أن يبدلهم ربهم خيراً مما حرمهم ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ﴾ ولن نطلب الخير من سواه ولن نطمع بالاستئثار فيما يرزقنا ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ [القلم: 32].

ولذلك جاءت العظة بعدها ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ يصيب به الله من يعصاه ويظن أن الدنيا وخيراتها دائمة له ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: 33].

إن عناصر القصة كاملة.

أبطال القصة: أولاد الرجل الثلاثة.

أماكن حدوثها: دارهم، والطريق إلى البستان، والبستان.

الزمان: مساء يوم الحصاد وصباح اليوم التالي باكراً.

الحوار: مذكور بألفاظه.

لو أراد مصور أن يصور قصة كاملة الأركان، تامة العناصر لوجد في هذه القصة المذكورة في سورة القلم عناصر رواية كاملة بأحداثها الأساسية والثانوية وأبطالها الرئيسيين والثانويين، والعقدة والحل والعظة البالغة في آخرها.

إنك عندما تقرأ هذه الآيات من سورة القلم تحس بشخوص أبطالها وأفكارهم وتسمع كلامهم وحوارهم بل وتكاد تقرأ أفكارهم فنواياهم أمامك واضحة لا لبس فيها، لأن الله سبحانه وتعالى قد سمع حتى نواياهم فنقلها إلينا في آي كتابه العزيز لتكون عظة وعبرة لنا ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: 4]، وعندما تسمع نهاية القصة وترى ما حل بهم تتذكر قول الله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: 284].

المشهد القرآني:

إنك، عندما تقرأ الآيات التي تصف بعض الأحداث تحس أنك أمام مشهد من نوع خاص، مشهد تتحرك فيه الأحداث وكأنها تحصل أمامك لحظة القراءة.

إن قراءة الآيات التي تصف أحداث يوم القيامة يجعلك تحس بهولها، فكل شيء يدمَّر والصمت ينتشر، صمت رهيب يأخذ بمجامع القلوب، وتقشعر لهوله الأبدان.

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾﴾ [طه: 105] فتتخيل الجبال تتداعى وتنهار فماذا سيحدث بعد نسف الجبال ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: 106، 107] وكيف ستكون حال الناس، إنهم صامتون خاشعون قد أخذت الأحداث بمجامع نفوسهم، يريدون الفرار ولا مفر فيدعوهم الداعي فيتبعونه دون أن ينبسوا ببنت شفة ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ [طه: 108] فلا يخالفه أحد ولا يبحث عن طريق آخر ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ مع أن عادة الناس في أحداث مماثلة في أيام الحياة الدنيا الصراخ وطلب النجدة ومناداة بعضهم على بعض ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: 108]، أما الوجوه التي اعتادت أن تنظر باستكبار وصلف فقد عنت وخضعت ﴿۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾ [طه: 111].

أما في سورة الفرقان فيصور لنا مشهد يوم القيامة وحال الكافرين فيه بالتفصيل، تفصيل يجعلنا نخشى أن نكون معهم ونلاقي ما يلاقون ونسمع ما كانوا يقولون في الحياة الدنيا وقد آن أوان حسابه ﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفرقان: 21] وهذا الاستكبار والعتو سنرى حسابه في الآيات التالية ونسمع بكاءهم وندمهم وصرير أسنانهم ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ [الفرقان: 22] وهذا لا يكون إلا يوم القيامة ﴿لَا بُشْرَىٰ

يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: 22] فقد رأوا ما طلبوا رؤيته، ولكن بعد أن كفروا وظلموا واستحقوا العقاب فماذا بإمكانهم أن يقولوا: ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: 22] أما القصور والدور والجاه والسلطان الذي اتخذوه وسيلة للاستبداد والظلم في الدنيا فكأنه لم يكن ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: 23].

فكيف تكون حال الطائعين العابدين ممن قضى الله بدخولهم الجنة؟ ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: 24 – 26] أما ملك الكافرين في الدنيا وتسلطهم فقد زال كأنه لم يكن ﴿وَكَانَ﴾ [الفرقان: 26] يوم القيامة ﴿يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: 26].

يرى الكافر ذلك فيتأكله الندم وتملأ قلبه الحسرة، ولات ساعة مندم فهو قدم إلى ساعة الحساب والتراجع لم يعد ممكناً ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ﴾ لنفسه بكفره ولغيره بطغيانه وتجبره ﴿عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ أسفاً وحسرة ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: 27] فلو فعلت ذلك لكان حالي حال المؤمنين ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ [الفرقان: 28، 29] ودعاني إلى الفوز فآثرت متابعة الشيطان ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: 29].

إنه مشهد رهيب، مشهد يوم القيامة تصوره الآيات بتفاصيله ونرى فيه الكافرين يتبرأ بعضهم من بعض وكل واحد يريد النجاة بنفسه ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: 166] ثم نرى موقف الآخرين ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾ لكن أُسقط في أيديهم جميعاً فلا منجى لهم اليوم من العذاب ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: 167].

أفواج أهل النار:

أما في سورة «صّ» فنرى مشاهد أهل النار وأفواجهم تدخل فوجاً بعد آخر لكأننا في عرض متواصل لمشاهد تقشعر لهولها الأبدان وترتجف القلوب وتدمع العيون. انظر إلى بداية المشهد الذي يعدك نفسياً لرؤية ما بعده ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ۝٥٥﴾ [صّ: 55]، إنه شر عودة يعودها مخلوق طاغ كفر بأنعم الله ﴿جَهَنَّمَ﴾ إنها مكان العذاب، النار التي تنتظر الطاغين ليكون عقابهم فيها، فكيف سيكون هذا العذاب ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ كما تصلى الشاة أو السمكة أي كما تشوى، ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [صّ: 56] والمهد عادة يكون مكان الراحة لكنه بالنسبة لهم مكان العذاب؛ وعذابهم ليس بالنار وحدها فلا بد لهم من طعام وشراب ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۝٥٧﴾ [صّ: 57] ليس هذا فحسب فكل

طعام يقدم لهم هو من هذا النوع ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾﴾ [صٓ: 58].

لكن ما يكاد يستقر بهم المقام حتى يدخل فوج آخر ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾﴾ [صٓ: 59] ولن يزيدنا وجودهم إلا أذى، بريحهم النتنة وصديدهم، وصراخهم ويرد الفوج الداخل عليهم قائلاً: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ﴾ بإغرائكم لنا للإقدام على الفواحش والظلم والطغيان ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ [صٓ: 60] الذي صار لكم مقاماً. ولذلك ترتفع الأصوات من الفوجين متهمة فوجاً ثالثاً على وشك الدخول ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا﴾ وكان السبب في دخولنا إلى جهنم ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ﴾ [صٓ: 61] لكن الله جعل لكل منهم ضعفاً من العذاب وإن كانوا لا يعلمون ثم يأخذون بالبحث في جنبات النار عن الناس الذين عاشوا معهم وبين ظهرانيهم في الحياة الدنيا ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾﴾ [صٓ: 62، 63] لكنهم لن يجدوهم لأن من يحسبه الطاغين من الأشرار هو من الأخيار ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ [صٓ: 64].

إنه مشهد كامل بكل أبعاده وحواره وتفاصيله لخصام أهل النار فيما بينهم.

مشاهد متقابلة:

تعرض سورة الصافات مشاهد متقابلة لتظهر مدى التضاد والتباعد والتناقض الكامل بين حال أهل الجنة وأهل النار. نرى في البداية دخول أهل النار إلى جهنم ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ۝١٩ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ۝٢٠ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝٢١ ۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ۝٢٣﴾ [الصافات: 19 – 23] ثم نرى بعد ذلك مشاهد النار وحوار أهل النار وخصامهم، ويكون الرد عليهم: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ۝٣٨ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٣٩﴾ [الصافات: 38، 39]؛ ثم توصف لنا حال أهل النار كأنا نراها رأي عين ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ۝٤١ فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ۝٤٢ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝٤٣ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ۝٤٤ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝٤٥﴾ [الصافات: 41 – 45] وتمضي الآيات في وصف حال أهل النعيم. وكما سمعنا حوار أهل النار نسمع حوار أهل الجنة ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٥٠ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝٥١ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۝٥٥﴾ [الصافات: 50 – 55] ثم وبعد أن رآه وسط جهنم يوجه إليه الكلام ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ۝٥٧﴾ [الصافات: 56، 57]، ثم نرى طعام وشراب وحال أهل النار بعد أن رأينا حال أهل الجنة فيكون المشهد أشد وقعاً في النفس.

اللهم أجرنا من النار وما يؤدي إليها من قول أو عمل واجعل خير أعمالنا خواتيمها وخير أيامنا يوم نلقاك، وصلِّ اللهم على محمد وآله وأصحابه وسلِّم؛ وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

obeikandl.com